إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الرابعة – العدد الرابع عشر – صيف ١٣٩٣ش / حزيران ٢٠١٤م
صص ٣١ ـ ٩

صورة المدينة فـي رواية "أصابعنا التى تحـترق" فى ضوء نظرية يوتوبيا لجورج ولز

حامد صدقى*
عبدالله حسينى**
انصار سليمى‌نژاد***

الملخص

إنّ دراسة المدينة كدراسة نقدية حظيت باهتمام كثير منذ نهاية القرن الثامن عشر، والمدينة باعتبارهـا إمّا واقعية وإمّا خيالية مثل المدينة الفاضلـة أو أرض الأحلام تعدّ من أهمّ البنيات داخل التقنيات السـردية فى رواية القرن العشرين. أمّا فى الفن الروائى، فلعلّ المدينـة تعدّ من أهمّ البنيات داخل التقنيات السـردية الحديثـة باعتبار أنّ وعى البطل يتشكل ويتطور داخلها متفاعلا معها ومتأثراً بها وكاشفاً لها فى كثير من الأحيان.

وتهدف هذه المقالة إلى تقديم معايير نظرية جورج ولز الإنجليزى فى اليوتوبيا وتطبيقها على رواية "أصابعنا التى تحترق". وقد توصلنا فى هذا البحث أنّ سـهيل إدريس سعى فى "أصابعنا التى تحترق" أن يخلق صورة مدينة فاضلة وفق وجهة النظر الاشتراكية مثل المعايـير الولزية لذلك يـرى أنّ الحب، والأمن، والقانون، واسـتخدام المال فى الطريق الصحيـح، وتكريم المرأة يجب أن تسـود البلاد العربية لكى تقـترب من المدينة الفاضلة المنشودة.

الكلمات الدليلية: المدينة، أصابعنا التى تحترق، مدينه فاضلة، جورج ولز.

---

*. أستاذ بجامعة خوارزمى، إيران. Sedghi@khu.ac.ir
**. أستاذ مساعد بجامعة خوارزمى، إيران. Dr.abd.hoseini@gmail.com
***. طالب الماجستير بجامعة خوارزمى، إيران. Salimi.ansar@yahoo.com

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. هومن ناظميان
تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٦/١٤ش تاريخ القبول: ١٣٩٢/١٢/٨ش

المقدمة

أهمية البحث

إنّ المدينة قد حظيت بكثير من الدراسات، وعرف التاريخ أشكالاً من المدن، فهناک المدينة الخطيئة كسدوم، والمدينة الخراب كالعلياء والسند، والمدينة الغائبةكإرم، ومدينة التقاليد كلندن، والمدينة الثقافيةكباريس. لا توجد فی القرآن الكريم لغة المدينة الفاضلة ولكنّ أشـار الله تعالی فی بعض الآيات إلی مدينة أحلام لا تتحقق علی أرض الواقع منها قوله: ﴿وَيا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْـطِ وَلاَ تَبْخَسُـواْ النَّاسَ أَشْياءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِی الأَرْضِ مُفْسِـدِينَ﴾ (سورة الهود: الآية ٨٥) وربّما تكون المدينة الفاضلة التی توجد فی عقول الفلاسفة، والأدباء، والمثقفين مختلفة عمّا جاء فی القرآن.

كان «أفلاطون قد أرسی معالم هذه المدينة فی جمهوريته.» (أبوغالی، ١٩٩٥م: ٢٦٣) ويقال شـيّد اليونان عادةً مدينتهـم الإلهية علی غرار مدينتهـم الإجتماعية الأرضية. فالمدينة الإلهية عندهم، سـواء مدينة الأساطير الشعبية أو مدينة الفلاسفة؛ هی النسخة الراقيـة الكاملة "المثالية لمدينتهم" الفاضلة فـی الأرض. «أمّا الفارابی (محمد بن محمد ٨٧٤-٩٥٠م) فقـد فعل العكس وشـيد فـی كتابه المطبوع بعنـوان "آراء أهل المدينة الفاضلـة"، مدينته الفاضلـة علی غرار مدينته الإلهية أی مدينـة الكون. بل إنّ المدينة الفاضلـة عنده إنّمـا تكون فاضلة، فقط عندما تكون علی مثـال نظام الكون وترتيبه.» (الجابری، ٢٠٠١م: ٣٥٧)

أهداف البحث

تهـدف هذه المقالة إلـی تقديم معايير نظرية جـورج ولز الإنجليزی فـی اليوتوبيا وتطبيقهـا علی رواية "أصابعنا التی تحترق". فنحاول دراسـة مفهوم اليوتوبيا المقصودة فی رأی سهيل إدريس فی روايته المذكورة التی تُعدّ إحدی من ثلاثيته ثمّ نطبق ونقارن ميزات اليوتوبيا الولزية عليها لكی نكشف مقاييسها فی الفن الروائی اللبنانی.

إشكالية البحث

يبدأ البحث بتعريف مفهوم اليوتوبيا أولاً، ثمّ دراسة ميزاتها فی رواية سهيل إدريس

"أصابعنا التى تحترق أنموذجا"، ويرجع سبب اختيارنا لعنوان المدينة فى هذه الدراسة إلى أنّ الأمكنة هى الأبطال الحقيقية فى الروايات حيث المكان يشكلها، والمكان فى الواقع يصنع أفكار مؤلف الرواية، وخواطره ويصنع ذوقه، وفى ظلّ مفهوم المدينة يصنع الأديب فى أدبه صورة اليوتوبيا الفرضية والإنسانية التى يحلم أنّ تحقق وتشكل فى مجتمعه. فأثارت هذه الظاهرة فينا سؤالين هامين حاولنا الإجابة عليهما فى دراستنا:

أ. ما هى نظرية جورج ولز فى رسم معايير المدينة الفاضلة أو اليوتوبيا؟

ب. كيف تظهر ميزات المدينة الفاضلة الولزية فى رواية "أصابعنا التى تحترق"؟

منهجية البحث

وقد أعتمدنا فى هذا البحث على تحليل النص الإدريسى مستعيناً بمنهج هربرت جورج ولز. ربّما أنّ ميزات المدينة الفاضلة فى رواية "أصابعنا التى تحترق" لسهيل إدريس تشبه ميزات منهج اليوتوبيا لإشتراكى الإنكليزى المعتدل لجورج ولز فى التحليل الأدبى وغير الأدبى، فلذلک اخترنا هذه الرواية، وأجرينا أهمّ معايير نظرية اليوتوبيا الولزية عليها وها هى:

١. الشمول العالمى ٢. الحب والتسامح ٣. الحرية ٤. العمل ٥. المال ٦. تكريم المرأة ٧. تحذير من الإسراف ٨. تخلص من الفاسدين والسكارى والمجرمين. والمنهجية الولزية تعتمد على دراسة النصوص الأدبية على أساس المعايير المذكورة بصفة أسس تمتاز بها المدينة الفاضلة فيها.

فرضية البحث

والفرضية التى ندعوها فى هذا البحث هى أنّه يبدو أنّ سهيل إدريس يسعى فى روايته الشهيرة "أصابعنا التى تحترق" أن يصور مدينته الفاضلة الإشتراكية ويقوم بتلقين وإلقاء فكرته الإصلاحية الاجتماعية إلى مجتمعه العربى. ونوع المدينة الفاضلة التى يصورها الأديب اللبنانى ويستخدمه لنقد مجتمعه القائم هى المدينة المثالية التى صورها أفلاطون وسير توماس مور والإشتراكيين اللذين هم الطوباويين من أمثال جورج ولز.

العينات

وقد آثرنا سـهيل إدريس للدراسة لأسباب عدة منها: أنّه من أبرز الأعلام اللبنانيين فى كتابة الراوية الحديثة ومن ثمّ كان تأثيره فى مجال الفكر والثقافة من جهة، وفى رسم المدينة الفاضلة الراقية من جهة أخرى بارزاً جداً حيث يعدّ سـهيل إدريس من الأدباء اللبنانيين الإشـتراكيين الذين رسموا صورة مدينتهـم الفاضلة فى أعمالهم بصورة بارزة جداً. وإخترنا روايته الثالثة وهى "أصابعنا التى تحترق" بما أنّها تسـتكمل سيرة المثقف العربى الشـاب فى تحولاته الفكرية ومدينته الفاضلة السياسية والاجتماعية والثقافية وهو الشـاب المتمرد الشديد الطموح للعب دور فى بلاده، لبنان، فى الاتجاه الذى يحقق لها حريتها وتقدمها ووحدتها القومية والوطنية.

خلفية البحث

وهنا يجدر أن نقول أنّنا لم نجد – فى حدود ما قرأنا وبحثنا عنه – دراسـة أخلصت نفسها لهذا الجانب المجهول من النقد فى ضوء نظرية إشتراكية إلّا نتفا مبثوثة هنا وهناك، منها: يوسف الشارونى الذى يتناول فى مقالة "يوتوبيا الخيال العلمى فى الرواية العربية المعاصرة" تطور مفهوم اليوتوبيا فى التاريخ و فى الرواية العربية المعاصرة، واحمد عزيز الحسـين الذى يتناول فى كتابه "صورة المدينة وانعكاسها على بنية الشكل الروائى فى الرواية العربية السورية (١٩٥٤م-١٩٧٤م) الجوانب الثقافية والسياسية، والاجتماعية فى الرواية السـورية وفى الفارسـية" يتناول بعض الباحثين مـن أمثال جمال احمدى فى مقالته "بررسـى آرمان شهر در اشـعار فريدون مشيرى" صورة المدينة الفاضلة فى أشعار فريدون مشيرى ويتناول محمدرضا حاجبابايى فى مقالته "انديشه آرمان شهرى در اشـعار فريدون مشيرى و أدونيس" مقارنة المدينة الفاضلة بين الشاعرين الفارسى والعربى، مشـيرى وآدونيس وإلخ ولكنّ هذه الدراسـات والمقالات ما درسـت صورة المدينة الفاضلة على ضوء نظرية علمية محددة مثل نظرية هربرت جورج ويلز.

حدود البحث

وستعالج المقالة المسائل التالية على الترتيب:

١. تحديد العيّنة التى أجرى عليها البحث.
٢. عرض الإطار لنظرية جورج ولز الاشتراكية.
٣. ملخص رواية أصابعنا التى تحترق.
٤. تطبيق النظرية الولزية على الرواية.
٥. المدينة الفاضلة "اليوتوبيا".

إنّ المدينة باعتبارها إمّا واقعية وإمّا خيالية تعدّ من أهمّ البنيات داخل التقنيات السردية فى روايات القرن العشرين. وهناک علاقة وثيقة ممتدة بين المدينة والرواية، والريف والرواية؛ بعبارة أخرى من الممكن أن نقول أنّنا لا نستطيع أن نكتب عن المدينة فى الرواية ونقدها ولا نكتب عن الريف فى الرواية، ويقول الروائى المصرى الكبير بهاء طاهر والحائز على جائزة البوكر العربية للرواية فى سنة (٢٠٠٨م) عن هذا الموضوع:

«عندما أكتب، أكتب عن المدينة. أكتب عن القرية، علاقة المكان بالموضوع لا تتحدد إلا بعد الكتابة بالفعل. نحن لا نستطيع أن نكتب عن المدينة ولا القرية. لكنّنى فكرت فى الموضوع فقلت رأيى شىء غريب جدّا: أنّ معظم الكتاب كمحفوظ هم من أصول ريفية نزحوا إلى القاهرة وكتبوا عنها أدباء من أمثال طه حسين، محمدحسين هيكل فى زينب، وعبدالرحمن الشرقاوى،كل هولاء من أصول ريفية، من خلفية ريفية، ثمّ نزحوا إلى المدينة ثمّ كتبوا عن القرية والمدينة معاً.» (القاهره، ٢٠٠٨م: ٨١) ويبدو قضية المدينة عند كاتب كبير مثل نجيب محفوظ المصرى حيث يحبّ جداً مدينته:

«إنّ الجانب الإيجابى هو جانب الحلم، أن يتمكن "أولاد حارتنا" أن يصلحوا الأمور أو أن يتمكن "الحرافيش" من أن يعيدوا ذلک العالم الطوباوى الذى يحلمون به، ولكنّ الصورة الروائية للمدينة صورة سلبية منتقدة وغير منطوية على ذلک الجانب الإيجابى الذى يراه فيها الكاتب من ذوى الأصول الريفية مثل الشرقاوى وطه حسين.» (القاهره، ٢٠٠٨م: ٨٣) «كما يطلق عليها زكى نجيب محمود مصطلح "أرض الأحلام".» (نجيب محمود، ١٩٩٨م: ٢٦-٣١)

منى الإنسان النفس منذ القدم بمدينة فاضلة استقرت فى فضائلها، تُنهى التاريخ وتتوّج نهايته بانتصار عادل. ومن حلم الإنسان بعالم عادل نهائى جاءت فكرة اليوتوبيا

القديمة- المتجددة التى تجعل من العالم المرغوب نقيضاً كلياً لعوالم الإنسان. أمّا ارتباط حلم أفلاطون فى "الجمهورية" فى القرن الرابع قبل الميلاد بمدينة مثالية يقودها الفلاسفة، وكتاب «توماس مور[١] "أفضل الجمهوريات" عام (١٥١٦م) تسخر اليوتوبيا، وهى كلمة اخترعها توماس مور من ذاته، فهى تعنى لغة "لامكان"، يشفع عليها مباشرة "لازمان" كى تظلّ معلقة فى أثير الذاكرة، لاتنقشع ولا تمطر.» (دراج،٢٠٠٤م: ٢٢-٢٣) فتخيل توماس مور فى كتاباته أنّ الجزيرة اليوتوبية ليس لها وجود على أرض الواقع كما عنونها زكى نجيب محمود "بأرض الأحلام" و«يتمثّل فيها البشرية، حيث تتحقق السعادة وتنمحى الشرور. وقام بتحليل نظامها السياسى، وانتقاد الأوضاع القائمة فى دولته عن طريق تخيله للأوضاع فى الجزيرة على نقيض ما هو موجود فى المجتمع.» (٤٧٠، Mojahed).

أمّا بالنسبة لصياغة كلمة اليوتوبيا ودلالتها، كان توماس مور٢ (١٤٧٨-١٥٣٥)، هو أوّل من صاغ كلمة "يوتوبيا" أو "أوتوبيا" فى نطقها اليونانى. وقد اشتقها من الكلمتين اليونانيتين "ou" بمعنى "لا" و "Topos" بمعنى "مكان"، وتعنى الكلمة فى مجموعها "ليس فى مكان"، ولكنّه أسقط حرف "o" وكتب الكلمة باللاتينية لتصبح "utopia"، ووضعها عنواناً لكتاب له هو أشهر يوتوبيا فى العصر الحديث.» (برنيرى، ١٩٩٧م: ٧) أو تعنى هذه الكلمة بمعنى آخر هو «ذلك الشىء غير الموجود فى الواقع.» (وهبة، ١٩٩٨م: ٧٤٦) كما يذهب إليه الدكتور مراد وهبة.

واستخدام اللفظ منذ ذلك الحين فى كل اللغات الأوروبية، وفى ترجمته العربية أيضاً، ليعنى «نموذجاً لمجتمع خيالى مثالى يتحقق فيه الكمال أو يقترب منه ويتحرّر من الشرور التى تعانى منها البشرية، ولايوجد مجتمع كهذا فى بقعة محدّدة من بقاع الأرض، بل فى أماكن وجزر متخيلة، وفى ذهن الكاتب نفسه، وخياله كل شىء.»

١. ولد توماس مور فى لندن فى السابع من فبراير عام (١٤٧٨)، ودرس القانون، وعمل محامياً بعد تخرّجه ثم محاضراً فى القانون.كما انتخب عضواً فى البرلمان سنة (١٥٠٤). ثمّ عين عضواً فى مجلس البلاط عام (١٥١٨م)، ثمّ صار كبير أمناء ملك إنجلترا سنة (١٥٢٥م)، ويعتبر كتابه "اليوتوبيا" أشهر كتبه على الإطلاق.

2. Thomos More

(وهبــة، ١٩٩٨م: ٧) وصارت للكلمة فيما بعد معان مختلفة، فأصبحت بمعنى كل إصلاح اجتماعى أو سياسى أو تصورات مستقبلية خيالية، أو احتمالات علمية فنية.

تــدلّ عبــارة الأوتوبيا فى الوقت نفســه على «نوع أدبى وعلى نوع من السياســة الخياليــة؛ وكذلك على تحقق شــكل مــن التنظيم الاجتماعى غالباً مــا يكون إكراهياً وأحياناً فظّاً، يفترض أن يتجسّــد فيه مثال يشــتهر بأنّه جيد بصــورة عامّة.» (بوريكو، ١٩٨٦م: ٧٨) ويواجه الفكر الطوباوى بسلسلة من الاختيارات التى تكون على شكل بدائل إمّا تغير العالم، وإمّا تحقيق نظام اجتماعى مطابق للمثال الأخلاقى إمّا بواســطة الفعالية وإمّا بواســطة المثالية. وكل واحدة من هذه العبارات هى نفسها غامضة. ولكنّ يستخدم الأديب فى أدبه الفكر الطوباوى لكى يتحقق النظام الاجتماعى مطابقاً لرؤيته السياسية، والأخلاقية، والاجتماعية، والثقافية.

يرتبط تاريخ اليوتوبيات فى القرن التاســع عشر بميلاد الحركة الاشتراكية، وفقدت الكلمــة نفســها معناها الأصلى وأصبحــت تعنى التفكير المضاد للتفكــير العلمى، وقد عرّف «فردريک إنجلز فى كتابه "الاشــتراكية اليوتوبية والعلميــة" كلمة يوتوبيا، ولقى هذا التعريف قبولاً واســعاً.» (برنيرى، ١٩٩٧م: ٢٥٩) إنّ الاشتراكية كما نعرفها اليوم، أقرب إلى تصورات الاشــتراكيين اليوتوبيين منها إلى تصورات كارل ماركس مؤسس الاشــتراكية العلمية. وهــى «لم تعدّ تعترف بحتميــة الصراع الطبقــى، وإنّما تهدف إلى تحقيــق إصلاحات اجتماعية تدريجية يمكن أن تزيل الفروق الاقتصادية بين الرأسماليين والعمال.» (برنيرى، ١٩٩٧م: ٢٦١)

أمّــا فكرة العــالم المثالى أو الفــردوس الأرضى أو اليوتوبيا كما تســمى منذ صاغ تومــاس مور هــذه الكلمة، ففكرة راودت خيال الإنســان منذ قــديم الزمان، وتناولها الفلاســفة والمفكرون مــن أمثال أفلاطون فــى كتابه "الجمهورية"، وأرســطو فى كتابه "السياســة"، وفارابى فى كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة"، وكلّهم كانوا يحاكون مدينة فاضلة من جمهورية أفلاطون. أمّا «ما يميز يوتوبيا عن تلك الأعمال الســابقة لها، فهو الشــكل الروائى الذى قدم بــه توماس مور، عالمه المثالى من ناحيــة، وارتباطها بعالم الواقع ومشاكله ارتباطاً وثيقاً من ناحية أخرى.» (مور، ١٩٨٧م: ١٣)

ثمّ نـرى أنّه جاء فى القرن التاسـع عشـر، هربرت جورج ولز وهـو يدين بمذهب الاشـتراكية وقد حدّثنا عن مدينة فاضلة حديثة واختار معايير "هربرت جورج ولز"[١] لأنَّ المدينة الفاضلة فى رواية "أصابعنا التى تحترق" لسهيل إدريس تشبه صورة المدينة فى رؤية يوتوبيا جورج ولز بما أنّ كلاهما من الاشـتراكيين المعتدلين الإصلاحيين. أمّا جورج ولز فقد حدَّثنا عن ميزات وخصوصيات المدينة الفاضلة الحديثةكالنحو التالى:

١. شمول عالمى: لايقتصر نطاقها الجغرافى على بقعة أو دولة بعينها فحسـب، ولكنّها تمتدّ لتشمل كوكب الأرض كلّه.

٢. الحب والتسامح: هى مدينة تتحدث لغة واحدة، ويسودها الحب والتسامح.

٣. الأمن والقانون فى المدينة: وينتشـر فى ربوعها الأمن والقانون. فى هذه المدينة يوائم بين رغبات الأشخاص، بينما جامعاتها مراكز نشيطة بالتجارب العلمية.

٤. المال: «هو صنو الحياة متى ما اسـتخدم اسـتخداماً صحيحاً فى هذه المدينة.» (الأنصارى، ٢٠٠٨م: ٩٩)

٥. التخلّص من الفاسدين، والسكارى، واللصوص، والمجرمين الظالمين، والمستعمرين: «إنّ علـى المجتمـع الطوبـاوى أن يتخلّص مـن البلهاء والمجانين، ومن الأشـخاص الفاسـدين، والعاجزين، والسـكارى، ومدمنى المخدرات، والمصابين بأمراض معدية، واللصوص، والمحتالين، والمجرمين والظالمين والمستعمرين.» (برنيرى، ١٩٩٧م: ٣٦٦)

٦. الحريـة: «هدف اليوتوبيا الحديثة هو أن تؤمّن لكلّ مواطن الحرية التى تهبها له أملاكه المشروعة، أى جميع القيم التى كانت ثمرة كدحه أو براعته أو بعد نظره أو شجاعته.

٧. العمـل: إنّ العمل ضرورة حتمية فى اليوتوبيا الحديثة، ولكنّ فئة قليلة مميزة،كما فـى المجتمع الحاضر، هى التى يمكنها أن تعيش دون أن تضطر للعمل إذا أرادت ذلك. وفى المدينة المثالية ليس لأحد حق الحياة بلاعمل.

٨. تكريم المرأة: على الدولة القيام بتحمّل مسؤولية فى تعليم الأطفال وتوفير أسباب

١. هربـرت جورج ويلـز، ولد فى بردملى بمقاطعة كنت بإنجلترا عام (١٨٦٦)، من أسـرة من طبقات المجتمع فى الدرجة الدنيا من الطبقة الوسطى. يدين ويلز بمذهب الاشتراكية وقد كان عضواً فى جمعية الاشـتراكية المعتدلة، وحصل على درجة العلوم من جامعة لندن، ومن كتبه المشـهورة: "الاشـتراكية والزواج"، و"يوتوبيا حديثة". (http://www.egs.edu/library/herbert-george-wells/biography)

السعادة لهم، كما عليها أيضاً أن تكرم المرأة اجتماعياً، وأن تدفع لها أجراً على رسالتها كأم.

٩. التحذير من الإسـراف: تحذر المدينة المثالية من الإسراف فى كلّ ما هو ملبوس أو مأكول أو مشروب.» (برنيرى، ١٩٩٧م: ٣٦٦)

ملخّص "أصابعنا التى تحترق"

تبدأ الرواية وسامى، بطل الرواية، جلس فى مكتبه وهو أديب وصاحب مجلة أدبية تُدْعى "الفكر الحرّ" وقف حياته على أدبه، وعلى مجلّته. وسـامى فى هذه المرحلة يظهر «صورة للإنسـان العربى الذى بلغ درجة من المعرفة جعلته ينظر إلى مجتمعه وإلى العالم كلّه بمنظارٍ واعٍ شـاملٍ وناقدٍ، إنَّه يلبس جبّـة المثقَّف الملتزم الذى يريد أن يحافظ على كينونته داخل خضمّ من المشاكل والقضايا.» (الشملى، ١٩٩٨م: ٨٦)

حيـاة البطل فى هذه الفترة تزخر بحضور المرأة، فقدكانت له صلات عديدة بنسـاء عديـدات، خاض مع بعضهنّ تجـارب مختلفة انتهت إحداها -وهـى الصلة مع إلهام- بالزواج.

تبدأ الرواية ثمّ تنتهى بالثنائى سـامى "مسؤول مجلة الفكر الحر" وإلهام راضى وهى الآنسة التى لاتزال شابّة فى التاسعة عشرة وتريد الاشتراك فى المجلة: «عفواً... اسمى إلهام راضى. وكتب الإسـم والعنوان على قسـيمة الاشتراك ثمّ رآها تتناول نسخة من العـدد الأخير مـن المجلة كانت على مكتبه، فتقلّب صفحاتـه فى صمت، وما تلبث أن تنظـر إليه: أنّنى أتابع المجلة منذ صدورها.» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٠) فاسـتقبلها رئيس التحرير سامى.

أمّا كان تجربة سامى طوال صفحات الرواية أول تجربته مع "رفيقة شاكر"، فتاة سورية جميلة، تعمل مدرّسة فى مدرسة صغيرة فى شمال سوريا. إنّها من المعجبات بإنتاج سامى ومن المبهورات بروايته "على ضفاف السين". أمّا هى فترغب أن تعيش مع البطل تجربة على منوال تجاربه مع فتيات باريس من أمثال ليليان، ومارغريت، وسـوزان فى رواية "الحى اللاتينى"، فعلاقته معها تنتهى بسرعة لأنّها تجربة الحبّ الفانية الباردة الضائعة. ثمّ

يجرّب سامى فى الرواية، تجربة حبّ كانت مع "سميحة صادق"، أديبة مصرية هى صديقته وصديقة مجلة الفكر الحر عبر الرسائل: «ثلاثة رسائل من سميحة صادق ... فرأيت أن سميحة صادق هى خير من يتحدّث فى فن القصة. فكان لابدّ من أن أشرف على إقامتها وتوفير أسباب الراحة لها كضيفة "فى لبنان"، وصديقه للفكر الحر.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٩٤) إنّها لم تفلح أيضاً فى امتلاك كيان البطل لأنّها مثقفة رومانسية، عاجزة عن مجابهة الواقع، وإلهام راضى هى المرأة الأخيرة التى تجمع بين محافظة الشرق "خجلها، وجمالها، وعائلتها المحافظة المقيدة بالتقاليد، وامتناعها عن العلاقة والاقتراب من البطل، وذوقها الأدبى وحضورها الفكرى مع البطل ومشاركتها البطل فى أعماله الأدبية داخل مكتبه". لذلك امتلكت كيان البطل واختارها سامى من بين نساء عديدات مثقفات: «إنّنى منذ زمن طويل أنتظرك يا إلهام.» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٤٦)

وبين البداية وخاتمة الرواية يخوض الزوجان معركة استمرار مجلة الفكر الحرّ، وسط عجز مالى تفرضه تناقضات محلية وعربية، فالعراق من أهمّ أسواق التوزيع، ولكنّ الحكومة الرجعية آنذاك، عام (١٩٥٣م)،كثيراً ماكانت تمنع إدخال المجلة إلى بغداد وأخواتها، فيلجأ سامى مضطراً إلى تخصيص نسخ معينة للعراق تكون خالية من المواد التى تثير حفيظة الحكام هناك. «قال سمير "شريكه فى المجلة": يبدو أنّ هناك سياسة متعمّدة فى العراق لمنع أعداد مجلتنا على التوالى: مرّة بسبب المقال الافتتاحى، ومرّة بسبب قصيدة ثورية، وتارة بسبب مقال عن المشكلات الاجتماعية... إنّهم يريدوننا ألّا ننشر أى مقال يثيرُ إحدى قضايانا الهامّة فى أىّ ميدان من الميادين... .» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٠٠) ثمّ يقترح سامى حلًّا لمشكله منع نشر المجلة فى العراق وإلهام تؤيده: «من أجل هذا ترانى أقرّ اقتراحک فى أن تزيد صفحات المجلة بضع صفحات إضافية تحشد فيها المادة المتفجّرة الثائرة، على أنّ توزّع فى سائر الأقطار، أمّا العراق، فلا تُثبت فى نسخة هذه الصفحات الإضافية، ريثما يقوم فى ذلک القطر حكم متحرر صالح.» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٨٧)

وبما أنّ هذا لا يكفى لحلّ المعضلة المالية فسوف يعمل "سامى" فى التدريس الخاص، حيث يعطى دروساً فى اللغة العربية للفرنسيين المتدربين فى السلک الدبلوماسى، وهو

كمثقّف حساس لايمكن إلّا أن يكون ملتزماً بالقضايا القومية، فيجره التعرف على شاب جزائرى يُدعى"عبدالقادر رحمانى"، الذى هو عامل فى الجيش الفرنسى، إلى التعاون مع هذا الشاب الذى يبحث عن وسيلة ليلتحق بشعبه الجزائرى المقاوم بدلاً من الانخراط فى جيش محتلّيه الفرنسيين. وتعاون سامى مع هذا الشاب يتضمّن مغامرة وتضحية بوظيفة. فاستقال "سامى" من معهد تعليم اللغة العربية للجنود الفرنسيين لأنّهم يرتكبون جرائم ضد الشعب الجزائرى. «وسامى أذكرُ، وأنا أغادر المعهد، صديقنا عبدالقادر رحمانى، فأحسّ بعض العزاء، إذ أدرك أنّ بوسعى، أنا أيضا، أن أكون جندياً صغيراً فى جيش التحرير العربى.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٦٥)

وأثناء انطلاقة مجلة الفكر الحرّ وانتشارها يفتح سامى أبوابه، ومعه إلهام راضى بطبيعة الحال، لمثقفين بارزين من مشارب مختلفة. تبدأ علاقته مع المثقفين من وحيد الملتزم بحزب الهلال واضعاً ثروته التى خبأها فى المهجر تحت تصرف حزبه حتى مات مفلساً، «فاستطرد يقول وحيد: وقد تُعجب يا سامى إذا أخبرتک أنّنى أنفقتُ مالى من أجل الحزب.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢١٩) وكريم الذى كان فى حزب الأرجوانيين لكنّه ضاق ذرعاً بوفائهم المبالغ للاتحاد السوفيتى. «وبعد أن انفضّ الاجتماع، استبقى سامى صديقه كريم ليسأله سرّ تطوّر موقفه من الأرجوانيين، وقال له: إنّنى قد أفهم اقتراحک فى الإشادة بموقف الإتحاد السوفياتى. أمّا هؤلاء "المرشحون دائماً للخيانة" على حدّ تعبيرک.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٧١) وهانى المهووس بلبنان حتى التفكير فى لبننة العالم؛ إلى عصام الحلوانى الشاعر المستغرق فى حب النساء وكتابة أجمل القصائد فى الحب والجمال.

وينشئ سامى علاقة عابرة مع الأديبة الشابة رفيقة شاكر التى سرعان ما تنتقل إلى ذراعى عصام، وتزوغ عينا عصام على إلهام التى ترتبک أمام وسامة الشاعر إلّا أنّ حبها لزوجها "سامى" مدعومة بتقاليدها المحافظة يعصمها من التمادى. ولكنّ هذا لا ينفى أن تتألّم ممّا تعتبره ماضى زوجها سامى، «قالت فى نفسها إلهام: لابدّ أنّک "سامى" كنت ترمى، إذ رويت لى علاقتک السابقة بمؤلفة رواية "المغامرة"، رفيقة شاكر، إلى أن تلحقها بذلک الماضى... أيكون لديک بعدُ ما تخفيه عنّى يا سامى؟ إنّنى أقدر لک تلک

الأمانة وذلک الإخلاص. ولكنّى أريدک أن تدفن حقاً هذا الماضى وتلک الذكريات.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢١٥)

وقد سـجّل جانباً من هذا الماضى فى روايته على ضفاف السـين، إلّا أنّ معاناتها الحقيقيـة كانت مع الكاتبة سميحة صادق التى تلاحقـه بقصة حب وهمية طالبة منه أن ينفصل سامى عن إلهام ليكون معها. «أمّا أنا "سميحة صادق"، فلا أفهم معنى وجود إلهام معک مهما حاولت أن أفهم، وأنا بصراحة أرى هذا الزواج سـخفاً لا معنى له، أشـبه برقعة على سطح حياتک، ينتظر أن تُنزَع، ويرْمى بها... .» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٣٠)

وهـو ما يرفضه سـامى بحزم، نافياً أن يكـون بينهما أكثر من صداقـة أدبية أصبح فى غنى عنها، فيكتب: «حضرة الآنسـة سميحة صادق، يؤسـفنى أن أصارحک بأنّکِ لم تسـتطيعى أن تفهمى صداقتى الأدبية لک، ففسـرتها على غـير حقيقتها.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٣٢)

ولا تـزال العلاقة بين إلهام وسـامى هى الحب والقناعة بالحدّ الأدنى من شـروط العيش الكريم مقابل اسـتمرار مشـاكل وديون مجلة الفكر الحر التى جاء نجاحها على حسـاب المشـروع الروائى لسـامى الذى لا يجد وقتاً لمواصلة إنتاجه المتميز. وهو ما يدعو إلهام إلى الصبر، على الرغم من إصابة سامى زوجها، بالسعال والمرض فى آخر الرواية، على نزواته، فيما تتأمل أصابعه التى تحترق بنار الإبداع والإخلاص لمشـروع عمرهما المشترک: الفكر الحرّ.

«وسـرتُ "إلهام" على رؤوس أصابعى ... وأطللتُ من فوق كنفه، كاتمةً أنفاسى. كان أمامه ورق كثير أبيض ... إنّه يكتب. وقد خُيل إلَى أنّ أصابعه التى تُمسـک بالقلم،كانت تحترق إنّه يكتب. وذكرت وعدى له. وعدى أن أساعده دائماً، ومهما كانت الظروف أن يكتب... .» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٩٢-٢٩٣)

ومـن الملاحـظ أن نعترف بأنّ هنـاک الأشـخاص الحقيقيين الذيـن يقفون وراء شـخصيات هذه الرواية. «فلم يكن وحيدٌ، وحيداً، بل هو الكاتب اللبنانى الكبير سعيد تقيالديـن الذى قضـى الأعوام الثمانية الأخيرة من عمره داعية متحمسـاً فى صفوف الحزب السورى القومى الاجتماعى، الذى أطلقت عليه الرواية اسم حزب الهلال، نسبة

إلى مشروع الهلال الخصيب الذى كان يتبنّاه هذا الحزب. ولم يكن كريم هادى بعيداً فى جوهره عن شخصية الأديب المفكّر رئيف خورى الذى كان عضواً فى الحزب الشيوعى اللبنانى –وقد أطلقت الرواية على الشيوعيين اسم الأرجوانيين كناية عن اللون الأحمر المرتبط بهم كعلامة وشعار– وقد ترك الشيوعيين ما حضا إياهم نقداً مرّاً لكنّه التقى معهم فى نصرة الجزائر.كذلک لايصعب أن ندرک المقصود بشخصية هانى الغريب، فهو الشاعر سعيد عقل الذى يتباهى إلى حدّ الجنون بلبنان رافضاً أىّ ارتباط قومى له بالعرب. وتبقى شخصية عصام حلوانى الذى يكاد يصرخ على الورق بأنّه الشاعر نزار قبّانى من قمّة رأسه حتى أخمص قدميه. وغنى عن القول بعد ذلک أنّ مجلة الفكر الحرّ هى مجلة الآداب التى أصدرها د. سهيل إدريس، وإنّه هو سامى ميمون حسب اسمه فى الرواية، أمّا إلهام راضى فهى رفيقة عمره السيدة عايدة مطرجى إدريس.» (دحبور، ٢٠٠٨م: ٨٤)

صورة المدينة فى "رواية أصابعنا التى تحترق"

وبعد أن استعرضنا أهمّ محاور نظرية يوتوبيا لدى جورج ولز، وملخّص رواية "أصابعنا التى تحترق" فنركز تطبيقنا على المعايير التى كانت موجودة فى الرواية على ضوء نظرية يوتوبيا لجورج ولز كما يلى شرحها ودراستها:

تمثّل رواية "أصابعنا التى تحترق" البنية الثالثة فى المشروع الروائى للكاتب الراحل سهيل إدريس ورواية أصابعنا التى تحترق هى حكاية سامى "سهيل إدريس" الذى عاد من سفر باريس بعد حصوله على درجة الدكتوراه فى الأدب العربى، وهنا فى بيروت يقصد أن يؤسس مجلة الفكر الحرّ "مجلة الآداب" باستعانة أصدقائه الأدباء، ويواجه صعوبات مالية، واقتصادية، وسياسية، وعدم انتشار مجلته فى سوق العراق وغيرها من المصائب الاجتماعية. وفى هذه الفترة نسعى أن نشرح بعض صفات اليوتوبيا المنشودة التى يريد سهيل إدريس تحقّقها فى أصابعنا التى تحترق.

١. المال

كما ذكرنا آنفاً يرى جورج ولز أنّ المال هو صنو الحياة متى استخدم صحيحاً

فــى المدينة الفاضلة، ونحن نواجــه فى أصابعنا التى تحترق شــخصيتين متضادتين فى استخدامهما للمال فى طريقه الصحيحة وطريقه السيئة.

وهما: "وحيد حقى" و"إلهام راضى". أمّا وحيد فبعد أنّ اشترک فى الكتابة مع سامى فى مجلة الفكر الحرّ، انضمّ إلى حزب الهلال وأنفق كلّ ماله فى سبيل غير صحيح حتى أصبــح فقيراً ليس له مال وأصبح مضطراً إلى طلب المعونة من الأصدقاء القدامى. وهو قــد رجَّح حزبه على صحته وســلامته: «فأجاب وحيد: ليــس المهم أن أكون فى صحّة جيدة، أو فى حال طيبة، المهم أن يكون الحزب بخير وأردف وحيد قائلاً: والحزب الآن يعانــى أزمة مالية لابدّ من التغلّب عليها ... فاســتطرد يقول: وقد تُعجب يا ســامى إذا أخبرتــک إنّنى أنفقت كلّ مالى من أجل الحزب. وتحــرّک الرّجل فى مقعده وقال وهو يضحــک: من أجل هذا أصبحت إلى طلــب المعونة من الأصدقاء القدامى!.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢١٩)

والحقيقة أنّ ســامى يرى أنّ عمل وحيد ليس معقولاً وصحيحاً فى أن ينفق ماله كلّه من أجل الحزب والوصول إلى الرياســة ثمّ يســتعطى، وفى الواقع يرى وحيد أنّ أدبه ذو قيمــة إلّا إذا كان فى خدمة حزبه. «فقال وحيد بلهجة هادئة رصينة: أصبحت الآن أعتقد يا عزيزى بأنّ أدبى لن يكون ذا قيمة إذا لم يكن فى خدمة حزبى. ثمّ نظر سامى إلى "إلهام" شــارد البصر، وقال: أهذا معقــول؟ أن ينفق ماله كلّه من أجل الحزب ثمّ ... يستعطى؟.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٢١)

ولم يكن وحيد، وحيداً بل هو «الكاتب اللبنانى الكبير ســعيد تقيالدين، الذى قضى الأعوام الثمانية الأخيرة من عمره داعيةً متحمّســاً فى صفوف الحزب السورى القومى الاجتماعى: الذى أطلقت عليه الرواية اسم "حزب الهلال".» (دحبور، ٢٠٠٨م: ٨٤)

٢. الحرية

وســامى الذى هو سهيل إدريس نفسه الذى اســتتر خلف قناع الشخصية، فى كلّ الروايــة يرفض دعوة وحيد للانضمــام إلى حزبه ويرى أنّ وحيد "ســعيد تقى الدين" مــع انضمامه إلى حــزب الهلال وصرف أدبه فى خدمة حزبه، فقــد حريته بصفته أديباً

مثقفاً حراً. وهذا ما نفهمه من الحوار الذى أجراه يسرى الأمير مع سهيل إدريس فى هذا الموضوع، إذ يقول إدريس: «كنتُ وما أزال أعتقد أنّ انتساب المثقّف الحرّ إلى حزبٍ ما يقيد حريته فى الاختيار، ويلزمه بسلوكٍ لايتمتّع دائماً بالحرية التى هو المطلب الأول للمثقّف. وفى تلك الفترةكان سعيد تقيالدين "وحيد فى الرواية" من أعزّ أصدقائى؛ وكنت شديد الإعجاب بإبداعه الفنى، ولكنّ نزعته إلى التحزّب، وربّما طمَعَه فى ترؤس الحزب السورى القومى الاجتماعى، وتبرّعه المستمرّ لهذا الحزب،كل ذلك قد باعد بينى وبينه، فقد سخّر كلّ موهبته لخدمة حزبه، وحُرم بالتالى من ذلك البعد الأساسى فى حياة الأديب: بُعد الحرية.» (الأمير، ٢٠٠٠م: ٧) لذلك نفهم أنّ الحرية فى المدينة الفاضلة الإدريسية هى المطلب الأول للمثقف الأديب وتجلياتها تظهر فى رواية أصابعنا التى تحترق ملموسةً وبارزةً. ومن سمات حرية سامى بطل الرواية أنّه يرفض الانحياز إلى اليمين، واليسار، والحزب الشيوعى، وحزب الهلال، لأنَّه يرى أنّ «أى التزام حزبى مهدّد لحريته، حرية فكره، وحرية أدبه وهو يصرّ على أن يحتفظ بحريته الكاملة.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٦٦) فهو «لاينضمّ إلى أىّ حزب حتّى ولو كان يؤيده، وهذا الموقف شديد الشبه بالموقف الوجودى على نحو ما عبرت عنه "سيمون دى بوفوار" فى روايتها "المثقفون".» (الشارونى، ١٩٦٤م: ٢٠١) وفى كل الرواية نرى أنّ سامى جعلها مجالاً للحديث عن شخصية البطل الثورى وطالب حرية الفكر، والتعبير، والكشف عن اتجاهاته الفكرية، وموقفه السياسى، وعواطفه واتجاهاته القومية.

لذلك يؤسس سامى مجلة الفكر الحر "وهى مجلة الآداب" وينفق ماله كله ويضَحَّى بحياته لها طالباً حرية مطلقة فى طريق حياته التى كانت قبل سفره إلى باريس وطوال إقامته فى باريس وبعدها فى تحمّل كل المصاعب، والمضايقات للتحرّر من أىّ لون من ألوان العبودية، فيحدّث نفسه ويقول: «فقد كنتُ دائم الإيمان بأنّ أكبر نعمة مُنحها الإنسان هى نعمة الحرية، وأنّ كلّ نضال قام به الإنسان عبر القرون إنّما كان هدفه الأسمى الحرية، والتحرّر من لون ما من ألوان العبودية. من أجل هذا، فكرتَ وأنت بعد فى باريس، بأن تنشئ "مجلة الفكر الحر" لتكون الرسالة تعبير عن إيمانك، ولتجعلها وسيلةً من وسائل تحرير الإنسان فى هذه المنطقة من العالم... .» (إدريس، ١٩٩٨م:

١٠٣)

واعتماداً على أنّ سهيل إدريس يرى "حرية" مطلقة للأديب المثقف ويرى أنّ الأديب يجب أن يخرج من موقفه المتحفف لذلك يقول إنّنا «من الذين يعتقدون أنّ الأديب مُعارضاً أبدياً للسلطة، وينبغى أن يتحمّل هذه المسؤولية، ومن دونها لن يكون هناك تقدّم ولا تطوّر للمجتمع.» (زوكار، ٢٠٠٨م: ٩٦) ولهذا كانت مجلته الفكر الحر "وهى نفس مجلة الآداب" تمنع فى السوق الرئيسة الأولى لرواجها، وهو العراق، لأنّ سامى ينشر فيها ضدّ حكامها مقالات ومنشورات تهدّد انتشار المجلّة وتواجه الاحتجاب، لذلك يصرخ صراخ الحرية فى روايته، و«يحسّ بأنّ حريته كلّها مهدّدة تهديداً مميتاً، حريته فى أن يتنفّس، ويعيش، ويواصل بناء هذه المؤسسة التى بذل الكثير ليراها تبزغ إلى النور. ويحقد حقداً أسود على أولئک الحكام الذين يمنعون الأقلام أن تعيش حريتها، حفاظاً منهما على كراسيهما مهدّدة بعبودية الخوف من الانهيار.» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٠٣)

٣. تكريم المرأة ومشاركتها فى النشاطات الاجتماعية

أمّا الشخصية الثانية فى الرواية فهى إلهام راضى زوجة سامى وهى «رفيقة عمر سهيل إدريس، السيدة عايدة مطرجى إدريس.» (دحبور، ٢٠٠٨م: ٨٥) وهى شخصية أديبة تفهم مشاكل سامى "سهيل إدريس" فى بداية تأسيس مجلة الفكر الحر "مجلة الآداب" وبداية الزواج. وحاولت إلهام أن تقنع سامى على أنّها تتولّى التدريس فى إحدى المدارس الابتدائية وتحصل على بعض المال لتصرفها فى طريقه الصحيح كما يذهب إليه جورج ولز فهى تقول: «ألم أحاول أن أقنع سامى بأن يوافق على أن أتولّى التدريس نهاراً فى إحدى المدارس الابتدائية، فأحصل على بعض المال الذى يساعدنا على تحقيق أمنيتنا على أن أتابع دراستى مساءً فى الأكاديمية؟ أمّا كان ذلک بدافع من الشعور بواجب المشاركة وتخفيف بعض العبء عن كاهله؟» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٥٣) هذه العبارات تدلّ على موقف المرأة فى مشاركتها لبناء مستقبل زوجها، لذلک تريد أنّ تشترک فى الحصول على المال مع زوجها ومساعدتها له لتأسيس بيت صغير تدريجياً

وشراء حصتى شريكيهما "سمير وضياء" فى المجلة وصرف المال فى طريقة العلم. لذلك تحاول إلهام أن تطرد عن زوجها اليأس والتردد. فتقول: «وحين أبلغتنى، بعد يومين واليأس فى صوتك ونظراتك أنّ شريكيك يطلبان ثمناً باهظاً لحصتيهما فى المجلة، ثمناً يعادل أربعة أضعاف ما شاركا به من رأس المال... ألم أخبرك يومذاك إنّى أقنعت أهلى بأن يقدموا لنا نقداً ثمن غرفة الاستقبال التى كانوا ينوون شراءها لنا؟» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٨٤)

أمّا بالنسبة لتكريم المرأة فى اليوتوبيا الإدريسية المتجلية فى رواية "أصابعنا التى تحترق" نرى أنّه يحترم النساء من أمثال إلهام راضى، ورفيقة شاكر، وسميحة صادق، فسامى يكرّم إلهام راضى ويحترمها قبل زواجه منها فى دعوتها إلى قراءة روايات من الفرنسية للترجمة وصرف وقت لها، ومنذ بداية الرواية كان سامى يشاركها فى البحث الأدبى ونقد ترجماته ويسمع ويصدر رأيه فى مجلّته الفكر الحرّ.

وعندما «أراد المؤلف فى "أصابعنا التى تحترق" أن يصوّر "إلهام راضى" زوجة البطل، حاول أن يرسم لها نموذجاً مثالياً لزوجته تجمع بين تفتح المرأة، وتمسكها بالأخلاق الشرقية.» (السعافين، ١٩٨٧م: ٤٦٥) فسامى يعطيها قصة جميلة ويريد منها ترجمتها ليدرس معها الرواية وعناصرها: «قال سامى وهو يدفع لها مجلة فرنسية شهرية: إنّ فيها قصة جميلة حاولى أن تترجمى منها بضع صفحات نتدارسها معاً فى لقائنا القادم ... وحدثته "إلهام" عن رأيها فى الرواية التى سبق أن أهدى إليها نسخة منها. وقالت إنّ سلوك البطل لا أخلاقى حاولت الرواية أن تبرّره وتعطّف عليه القارئ ... .» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٠٧)

فسامى بعد زواجه منها، يعطيها سكرتيرية التحرير لمجلة الفكر الحر: «ثمّ اقترح على سامى أن أساعده فى الفكر الحرّ بتولى سكرتيرية التحرير، تمهيداً للاستقلال بالمجلة بعد فترة من الزمن. ولقد أثلج اقتراحه صدرى وملأنى اعتزازاً بأن أَحسّنى مشاركة لرفيق حياتى المقبل فى العمل الرئيسى الذى يقوم به.» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٥٣-١٥٤) "سهيل إدريس" فى كل الرواية يحاول أن يحترم المرأة ويسعى لتعليم المرأة وتشجيعها للحصول على شهادة الليسانس والدكتوراه:

«واتّفقنا على أن أواصل "إلهام" دراستى بعد الزواج حتّى أحصل على الليسانس. وقال لى سامى إنَّه يشجّعنى على إعداد رسالة للدكتوراه بعد ذلک... .» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٧٥) أمّا بالنسبة للعمل نرى أنّ سهيل إدريس يرسم لنا بطل الرواية فى هذه الروايةكنموذج مثالى يعمل عملاً كادحاً للوصول إلى أغراضه وغاياته فى الحياة. فهو حينما يواجهه العجز المالى فى نشر مجلته يزيد فى جهده ويسعى فى الكتابة أكثر من ماضيه ويقلّل ساعات قيلولته وراحته طالباً حلّ مشكله:

«قال سامى "بعدما أصيب بعجز مالى فى مجلته بسبب منعها من سوق العراق" فى لهجة قوية: نزيد الجهد لزيادة الإعلان فى المجلة. إنّه حتى الآن مورد ضعيف جداً، أليس كذلک يا سمير ... وقال سامى: وأنا بدورى سأضحّى... إنّنى سأمتنع عن أخذ أىّ مبلغ شهرى لنصيبى ... وحين بلغ سامى منزله، فتناول طعاماً سريعاً، وهو يحسّ ذلک الغليان النفسى الذى افتقده طويلاً فى الفترة الأخيرة، ذلک الاحتشاد العاطفى والذهنى الذى يدعوه إلى الكتابة ويلحّ عليه فى اعتصار الفكر والروح والقلب على شبا قلمه الراعش. ولم يجد حاجةً إلى القيلولة، بل جلس وهو يحسّ بأنّ تلک الأقصوصة التى كان قد بدأها منذ أيام تكتمل خطوطاً ... تلک كانت أروع لحظات الحياة عنده: أن يشعر بأصابعه تحترق.» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٠٤)

٤. التحذير من الإسراف

وفى مكان آخر نرى أنّ إلهام تنفق مبلغاً صغيراً من المال الذى كانت تحتفظ به لشراء ثوب صيفى لأنّ سامى لم يكن له مال ليساعد صديقه القديم "وحيد حقى" فحين رأت إلهام، عجز زوجها عن تقديم مبلغ لصديقه وحيد حاولت أن تجنب عن الإسراف فى ملبوسها وأنفقت مالها لمساعدة شريكها الزوجى: «انسحبت "إلهام راضى" مسرعة من المكتب، ثمّ أومأت إلى سامى من خلف الباب بحيث لايرانى صديقه، وأعلمته أنّى سآتيه بمبلغ صغير من المال كنت محتفظة به لشراء ثوب صيفى. فلم يقل سامى شيئاً، وحين جئته بالمبلغ نظر إلى نظرة عرفان وعاد إلى المكتب... .» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٢٠) وهكذا نرى فى رؤيتها إلى الحياة الزوجية،كانت تجتنب عن الإسراف فى ملبوساتها،

وهى فى الواقع تخالف تقاليد شـرقية خاطئة فى إنفاق الأموال الكثيرة، وإسـرافها فى بداية الزواج لشـؤون غير صحيحة عوض أن ينفق الزوجان أموالهما فى بداية الحياة الزوجية لبناء مسـتقبلهما لا للوقوع فى ورطة التجمّلات. وهذه الرؤية تطابق رؤية ولز الإشتراكية فى بناء المدينة الفاضلة «يجب أن تحذر المدينة الفاضلة المثالية من الإسراف فـى كل ما هو ملبوس أو مأكول أو مشـروب.» (برنيرى، ١٩٩٧م: ٣٦٦) فتجيب إلهام طلب سامى لتقديم الخاتم لها قائلة:

«ولكن هل طلبتُ منک خاتماً يا سامى؟ هل حدثتک يوماً بهذا؟ قال سامى بصوت منتعـش بالأمـل: أنت إذن لاتطلبين منّى خاتماً؟ أمن الممكـن أن يحدث هذا فى بلدنا؟ فقلتُ "إلهام": أنا لسـتُ عبيدة تقاليد يا سـامى. ماذا يفيدنى الخاتم؟ أىّ نفع أجنيه من وضع خاتم فى إصبعى يبلغ ثمنه ألوف الليرات؟ أليس الأفضل أن نسـتعين بهذا الثمن، حين يتوفّر لک، لتحقيق بعض مشاريعک؟» (إدريس، ١٩٩٨م: ١٧٥)

٥. التخلص من الفاسدين والظالمين والمستعمرين

يعمل سـامى فى التدريس الخاص، حيث يعطى دروساً فى اللغة العربية للفرنسيين المتدربين فى السـلک الدبلوماسـى، وهو كمثقّف حسـاس لايمكن إلّا أن يكون ملتزماً بالقضايا القومية، فيجره التعرف على شاب جزائرى تُدعى عبدالقادر رحمانى، الذى هو عامل فى الجيش الفرنسى، إلى التعاون مع هذا الشاب الذى يبحث عن وسيلة ليلتحق بشـعبه الجزائرى المقاوم بدلاً من الانخراط فى جيش محتلّيه الفرنسـيين. وتعاون سامى مع هذا الشـاب يتضمّن مغامرة وتضحية بوظيفة. فاسـتقال سامى من معهد تعليم اللغة العربية للجنود الفرنسـيين لأنّهم يرتكبون جرائم ضد الشـعب الجزائرى. «سامى أذكر، وأنا أغادر المعهد، صديقنا عبدالقادر رحمانى، فأحسّ بعض العزاء، إذ أدرک أنّ بوسعى، أنـا أيضا، أن أكون جندياً صغيراً فى جيش التحرير العربى.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٦٥) هذه القضية ربّما تدلّ على أنّه يعدّ سـهيل إدريس من الأدباء الطبوباويين اللذين يرون أنّ المجتمع الطوباوى يجب أن يتخلّص من المحتالين، والمجرمين والظالمين والمسـتعمرين مثل الفرنسيين وقواتهم الإحتلالية فى لبنان.

شمول عالمى

من ميزات المدينة الفاضلة الإدريسية التى تشبه اليوتوبيا الولزية ويرى سهيل إدريس أنّه يجب أن تصبح منتشرة وشاملة فى عالم الوجود وماورائه هى المسؤولية برزت كعامل بناء فى أكثر أعمال سهيل إدريس. وهناک شخصيات فى ثلاثية الروائية سعت بلا مسؤولية، أمثال "عصام الحلوانى" و"سميحة صادق" و"رفيقة شاكر" و"عبلة سلطان" فى "أصابعنا التى تحترق"؛ و"صبحى وعدنان" و"ناهدة" فى "الحى اللاتينى"؛ و"فوزى" و"سميا" فى "الخندق الغميق".

وإنّ هذه المسؤولية التى شعر بها البطل الإدريسى برزت فى أكثر من مستوى. المستوى الفردى والمستوى القومى والمستوى الشمولى أو الإنسانى. أمّا على المستوى الفردى، فعلى كلّ فرد أن يتّخذ قراره بنفسه، وعليه أن يأخذ على عاتقه مسؤولية اتخاذ القرار. فسامى فى "أصابعنا التى تحترق" لم ينبع قراره إلّا من داخله، و«بمقتضى قناعته الذاتية، قدم استقالته من المعهد الفرنسى بكفيا، رغم الضائقة الاقتصادية التى كان يعانى منها.» (إدريس، ١٩٩٨م: ٢٦٨) ولم تغب المسؤولية عن المرأة. صحيح أنّ إدريس قدم لنا نساء عاجزات، أو فتيات سيطرت السلبية على فترة طويلة من حياتهنّ. غير أنّه كان يدرک أنّ المرأة كإنسان حر، تقف على قدم المساواة مع الرجل فى صنع الحياة. إذن لا فرق بين الجنس الذكر والأنثى فى الالتزام بالقضايا الأخلاقية التى تطور المجتمع الإنسانى.

النتيجة

دار موضوع هذا البحث حول صورة المدينة فى رواية "أصابعنا التى تحترق" لسهيل إدريس فى ضوء نظرية جورج ولز الإشتراكية، وبما أنّ ميزات المدينة الفاضلة فى أعمال سهيل إدريس كانت تشبه اليوتوبيا التى يرسمها الرجل الإشتراكى الإنجليزى، جورج ولز، لذا حاولنا تطبيقها على الرواية الإدريسية وقد خرجنا منها بهذه النتائج:

١. لقد وقف سهيل إدريس وراء شخصية بطل الرواية أى سامى ورفض فساد المجتمع، وعدم مسؤولية الشخص فيه وبحث عن المجتمع الطوباوى والمثالى اللبنانى

الذى يتخلّص من الفاسدين، والسكارى، والمسرفين فى كلّ ما هو ملبوس أو مأكول أو مشروب، ولقد أشارت صورة المدينة الفاضلة فى روايته "أصابعنا التى تحترق" ضجيجاً لصراحة تعبيرها عن المجتمع الجديد المتنامى الطوباوى فى ذهن الأديب والآخرين وما فيها من إدانة لمصادر الإحباط والفساد فى المجتمع والريف.

٢. وسعى سهيل إدريس فى "أصابعنا التى تحترق" أن يخلق مدينة فاضلة وفق وجهة نظره الإشتراكية والبورجوازية. إذ يرى أنّ الحب، والتسامح، والأمن، والقانون، واستخدام المال فى الطريقة الصحيحة، وتكريم المرأة، والتحذير من الإسراف فى كل الشؤون. يجب أن تود البلاد العربية أولا أن يختلف المجتمع فى داخله ولاسيّما أعضاء الأسرة التقليدية الدينية اللبنانية على الرغم من صراع الأجيال فيها ويجب أن تتسامح الأجيال المختلفة فى هذه الأسرة الشرقية لكى تقترب من المدينة الطوباوية المنشودة.

٣. وتمثّل رواية "أصابعنا التى تحترق" البنية الثالثة فى المشروع الروائى الإدريسى التى تجسّد لنا بعض صفات اليوتوبيا المنشودة، فنستنتج من الرواية أنّ الشخصية التى تستخدم المال فى طريقه الصحيح، مثل إلهام راضى، زوجة سامى التى حاولت أن تقنع زوجها على أنها تتولّى التدريس فى إحدى المدارس الإبتدائية للحصول على بعض المال وتصرفه فى طريقه الصحيح لبناء شخصية موفقة ومفيدة للمجتمع المثالى. ولكنّ الشخصية التى تستخدم المال فى طريق غيرصحيح، مثل وحيد، وينفق كل ماله فى سبيل حزبه حتى يعانى فى النهاية من أزمة مالية، شخصية غير موفقة، وخاسرة ويجب عليه أن يعدل فى حياته ويصحّح سلوك فيها.

٤. أمّا تكريم النساء فمن ميزات المدينة الفاضلة الإدريسية التى يبرزها فى ضوء نظرية يوتوبيا لجورج ولز الإشتراكية فى رواية "أصابعنا التى تحترق" ومن خلال قراءة الرواية وتصرّف البطل الإدريسى مع النساء، نفهم أنّه يحترم النساء من أمثال إلهام راضى، ورفيقة شاكر، وسميحة صادق، ويعتبر إحترام النساء ومشاركتهن فى الحياة الإجتماعية وسيلة للوصول إلى اليوتوبيا المنشودة. لذلک نرى أنّ سامى يكرّم إلهام راضى قبل زواجه منها ويعطيها قبل زواجه روايات للترجمة ومنذ البداية يشاركها فى المناقشات الأدبية ونقد ترجماته.

٥. وبما أنّ المال هو صنو الحياة متى ما استخدم صحيحاً فى المدينة الفاضلة، ونحن نواجــه فى هذه الرواية أنّ الأديب اللبنانى يطرح مشــكلة العجــز المالى فى المجتمع الشــرقى للأدباء والمثقفين ويحاول أن يشرح طريقة صحيحة لإستخدام المال فى حياته الزوجية، وأيضاً فى حياة الأدباء. وهو يشير إلى قصة صديقه، وحيد، وقصده الخطأ فى إنفاق كل ماله فى سبيل حزبه "حزب الهلال"، حتى أصبح مضطراً، وسائلاً يطلب المال من ســامى بطل الرواية. وفى هذه الرواية نرى بيان ميزة أخرى لليوتوبيا الإدريســية وهى العمل. وهو يرســم لنا الإديب الذى هو صاحب مجلة الفكر الحر، كنموذج مثالى يعمل عملاً كادحاً للوصــول إلى أغراضه، وأهدافه فى حياته الأدبية وإن أصيب بعجز مالى واضطرّ إلى أن يعمل فى معهد تعليم اللغة العربية للفرنسيين المستعمرين.

٦. إنّ ميــزات نظرية اليوتوبيــا الولزية، كثيراً ما تنطبق على رؤية ســهيل إدريس الإشــتراكية وهذه تدل على أنّ الرجلين ينتميان إلى طبقة إجتماعية وسياسية مشتركة لذلك تعكس أعمال ســهيل إدريــس الأدبية بوصفها بنية إبداعية، رؤية مشــتركة مع جورج ولز ناتجة عن أفكارهما المتشــابهة ويتبلور هذا التوازن والإشــتراك عن طريق القيــاس وتطبيق نظرية ولز على الأثر الأدبى حتى يســتطيع المتلقى الوصول إلى رؤية الأديب اللبنانى بصورة بارزة فى أعماله مع تطبيق نظرية اليوتوبيا الولزية على روايته "أصابعنا التى تحترق" وفى النهاية تبدو ميزات المدينة والدولة المنشودة له.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أبوغالــى، مختار. (١٩٩٥م). المدينة فى الشــعر العربى المعاصــر. ط١. الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب.

إدريس، سهيل. (١٩٩٨م). أصابعنا التى تحترق. ط٨. بيروت: دارالآداب.

الأمير، يسرى. (٢٠٠٠م). «تجديد الرسالة والأحلام». مجلة الآداب. العدد٩. صص ١٣-٧.

برنيرى، ماريــا لويزا. (١٩٩٧م). المدينة الفاضلة عبر التاريخ. ترجمة عطيات أبو الســعود. ط٢. الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب.

بــوردون، ر؛ وبورّيكــو، ف. (١٩٨٦م). المعجم النقدى لعلم الإجتماع. ترجمة ســليم حدّاد. ط١. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

الجابرى، محمدعابد. (٢٠٠١م). العقل الأخلاقى العربى: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم فى الثقافة العربية. ط١. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

دحبـور، أحمد. (٢٠٠٨م). «دمعة الثلاثاء: أصابعنا التى تحترق فى وداع المعلم اللبنانى د.سـهيل إدريس». مجلة الآداب. العدد٤. صص ٨٩-٨٣.

درّاج، فيصـل. (٢٠٠٤م). الرواية وتأويل التاريخ نظريـة الرواية والرواية العربية. ط١. المغرب: الدار البيضاء.

زوكار، الشـاذلى. (٢٠٠٨م). «عن الشـعر، والكتاب، والحب، وشـراء الأقلام حوار لم ينشر مع د.سهيل إدريس». مجلة الآداب. العدد٧. صص ٩٩-٩٦.

السـعافين، إبراهيم. (١٩٨٧م). «تطوّر الرواية العربية الحديثة فى بلاد شـام». ط٢. بيروت: دار المناهل.

الشـارونى، يوسـف. (١٩٦٤م). «دراسـات فى الأدب العربى المعاصر». ط١. القاهرة: المؤسسة المصرية.

الشملى، سهيل. (١٩٩٨م). البطل فى ثلاثية سهيل إدريس. ط١. بيروت: دار الآداب.

الانصـارى، عبدالله عبدالوهاب محمد. (٢٠٠٨م). الإيديولوجيا واليوتوبيا فى الأنسـاق المعرفية المعاصرة دراسة بين كارل مانهايم وتوماس مور. د. ط. القاهرة: جامعة الإسكندرية.

محمود، زكى نجيب. (١٩٩٨م). أرض الأحلام. ط١. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.

مـور، توماس. (١٩٨٧م). يوتوبيـا. ترجمة وتقديم انجيل بطرس سمعان. ط٢. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.

نخبـة القاهرة. (٢٠٠٣م). الروايـة والمدينة. ملتقى القاهرة الثانى للإبـداع الروائى العربى. ط١. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

وهبة، مراد. (١٩٩٨م). المعجم الفلسفى. ط٢. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

.Horey, Mojahed, The proletarian Revaluation between might and right, Bulletin of the Faculty of Low, Alex University, V1, p470

المواقع الإلكترونية

http://www.egs.edu/library/herbert-george-wells/biography